سورة النصر

مدنية وهي أربع آيات مع البسملة

سورة النصر مدنية بلا خلاف؛ فجميع المفسرين متفقون على ذلك (فتح البيان). غير أن التفاسير ذكرت ثلاث روايات مختلفة عن زمن نزولها، أُولاها: أنها نزلت عند مُنْصَرَفه ﷺ من خيبر (روح المعاني). وغزوة خيبر وقعت في السنة السابعة الهجرية، وهكذا فإن هذه السورة نزلت في تلك السنة بحسب هذه الرواية. والرواية الثانية هي عن ابن عباس قال: "لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة حنين أنزل الله عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (الدر المنثور). وقد وقعت غزوة حنين بعد فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة حين بلغ النبي ﷺ وهو لا يزال في مكة الأخبار أن ثقيفا وهوازن مصرّون على الفساد، فسار ﷺ إليهم، ووقعت المعركة في مكان يُدعى حنين. لم يستطع المسلمون الثبات في أول المعركة، ولكن الله تعالى كتب لهم الفتح بنصره في نهاية المطاف، ونالوا نصرًا عظيمًا. فيرى ابن عباس أن هذه السورة نزلت عند عودة النبي ﷺ من حنين؛ أي في السنة الثامنة للهجرة.

والرواية الثالثة هي: عن ابن عمر: قال نزلت على النبي ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع. (الدر المنثور، وفتح البيان). وعاش النبي ﷺ بعدها ٨٠ يوما أو ٧٠ يوما عند البعض (البحر المحيط).

والتدبر في هذه الروايات يكشف أن الأصح أن هذه السورة نزلت عند حجة الوداع. وهناك روايات أخرى تدعم ذلك أيضا، فعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نُعيتْ إليّ نفسي أني مقبوض في تلك السنة (الدر المنثور، وجامع البيان).. أي أنه ﷺ أدرك أنه ما دام قد بُعث

لإقامة وحدانية الله ونشر الإسلام في العالم، وقد بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا وأخذ الإسلام ينتشر في العالم، وقد أنجز الله تعالى على يده مشيئته، فإنه قد حان وقت عودته إليه، واقترب أجله. وبالفعل توفي ﷺ إلى رحمة الله تعالى في السنة نفسها.

لقد تبين من هنا أن القول بنزول سورة النصر في السنة السابعة أو الثامنة لا يتوافقَ مع قول النبي ﷺ "أني مقبوض في تلك السنة"؛ إذ تُوفي في السنة الحادية عشرة، فهناك فارق ٣ سنوات أو ٤. ولا يصح قوله ﷺ هذا إلا إذا كان قد قال ذلك في السنة العاشرة.

فثبت من الناحية الحسابية أيضا أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع (روح البيان). كما ثبت من هذه الرواية أن ما نُسب في الرواية السابقة إلى ابن عباس أنه قال بنزول هذه السورة عند منصرف النبي ﷺ من غزوة حنين قول باطل، إذ لا يمكن أن يقول ابن عباس قولين متعارضين في وقت واحد.

والرواية الأخرى التي تحسم أن سورة النصر نزلت عند حجة الوداع هي كالآتي: لما نزلت هذه السورة، خطَب رسول الله ﷺ فقال: "إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله"، فأدرك أبو بكر ﷺ قصد النبي ﷺ فقال في قلق بالغ: "فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا" (روح البيان، والكشاف).

فسيدنا أبو بكر ﷺ فهِم هذا الكلام التمثيلي، فبلغ منه القلق كل مبلغ، فجعل يقدّم نفسه وأقاربه كلهم فداءً للنبي ﷺ كمَن يذبح كبشًا فداءً لشفاءِ قريبٍ له، متمنيًا أن يتقبل الله قربانه هذا، ليعيش النبي ﷺ طويلا.

هذه الخطبة قد وردت في البخاري بشيء من الاختلاف في الكلمات كالآتي: إن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ. قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ. لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلا سُدَّ

إِلا بَابَ أَبِي بَكْرٍ (كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ سُدُّوا الأبواب إلا باب أبي بكر).

لم يستطع الصحابة فهْم هذا الكلام التمثيلي، ولكن أبا بكر فهمه فأخذ في البكاء. يقول الصحابة: لقد ظننا أن النبي ﷺ يتحدث عن عبد آخر خيّره الله تعالى بين البقاء في الدنيا والاستمتاع بلذاتها وبين أن يختار رِفْقته، فأيّ داع للبكاء؟ فالحديث هنا عن فتوحات الإسلام وانتصاراته، ولكن أبا بكر أدرك بفراسته أن النبي ﷺ يتحدث عن نفسه، وأنه قد اختار لقاء الله، فكان بكاؤه في محله، فلما رأى النبي ﷺ قلقه عليه طمأنه قائلا: إن أبا بكر أسبق الناس إلى خدمتي بماله ونفسه، وإني أحبه بسبب تضحياته وفدائه، وأنه لو جاز لأحد إعطاء مقام منتهى المحبة لأحد دون الله تعالى، لأعطيته أبا بكر، غير أنه صديقي ورفيقي، وتجمعنا قرابة أخوة الإسلام ومحبته. ثم أمر أن تُسدّ كل الأبواب إلى المسجد إلا باب أبي بكر. وهكذا قد أشاد النبي ﷺ بحب أبي بكر له، لأن حبه الكامل هو الذي نبّهه إلى أن وراء نبأ الفتح والنصرة خبر وفاة النبي ﷺ، ومن أجل ذلك لم يلبث أن قال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا يا رسول الله.

وقد ورد في "إرشاد الساري" (شرح العسقلاني على البخاري) في شرح هذا الحديث أن النبي ﷺ ألقى هذه الخطبة قبل ثلاثة أيام من وفاته. مما يعني أنها آخر خطبة له ﷺ. ولما كانت سورة النصر هي السبب وراء هذه الخطبة، فلا بد من القول أنها نزلت قبيل وفاته ﷺ، فمن غير المعقول أن تنزل في السنة السابعة أو الثامنة، ويعرف من خلالها باقتراب أجله، ومع ذلك يلقي هذه الخطبة بعد أربع سنوات من نزولها ثم يتوفى!

لقد ثبت من هذا أن سورة النصر قد نزلت قبيل وفاة النبي ﷺ، أي عند حجة الوداع، فأدرك النبي ﷺ بها أن أجله قريب، كما أكد ذلك الوحيُ أيضا، فأخبر النبي ﷺ صحابته بذلك بعد وصوله إلى المدينة، ففارقهم إلى الله تعالى بعد أيام.

وفي التفاسير روايات أخرى تؤكد هذا، فقد ورد في "روح البيان": قال عليّ ﷺ: لما نزلت هذه السورة مرض رسول الله عليه السلام، فخرج إلى الناس فخطَب فيهم وودّعهم، ثم دخل المترل، فتوفي بعد أيام.

لقد تبيّنَ من هذه الرواية أيضا أن هذه السورة نزلت في أواخر حياة النبي ﷺ. إن معظم المفسرين قد أعرضوا عن هذه الحقيقة الواضحة مقلّدين بعضهم بعضًا، واعتبروا هذه السورة مما نزل في السنة الثامنة أو قبلها قليلا. فقد كتب الرازي: "الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة." وقال صاحب روح البيان: "إن السورة نزلت قبل فتح مكة، كما عليه الأكثر."

والحق أنهم لم يفضّلوا الروايات القائلة بنزول سورة النصر قبْل الفتح على الروايات الأخرى بعد تفحّصها وتمحيصها، وإنما قالوا بذلك لأنهم واجهوا مشكلة لم يستطيعوا حلّها؛ ذلك أن من قواعد العربية أنه إذا دخل "إذا" على الماضي أفاد معنى الاستقبال عادة، وقد قال الله تعالى هنا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فاعتبر المفسرون هذه الآية تتحدث عن فتوحات الإسلام المستقبلية حيث يدخل الناس فيه أفواجًا. ولما كان ضروريا أن تسبق النبوءةُ الحادثَ الذي تنطبق عليه، فاعتبروا قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نبوءةً تشير إلى فتح مكة، وفسروا قوله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ بدخول الناس في الإسلام بكثرة بعد هذا الفتح. ولو أن المفسرين اعتبروا هذه السورة قد نزلت قبل حجة الوداع، لما كانت فيها أية نبوءة عندهم، لأن حادث الفتح قد سبَق حجة الوداع، إذ كانت هذه الحجة في السنة العاشرة بينما كان فتح مكة في السنة الثامنة. فما كان أمام المفسرين سبيل لحلّ هذه المعضلة إلا أن يعتبروا نزول سورة النصر سابقًا لفتح مكة؛ إذ إن الفتح المذكور فيها هو فتح مكة عندهم (فتح البيان). إذن، فكانوا مضطرين للقول بنزولها قبل الفتح، وإلا لم يصحّ تفسيرهم.

مع أنه ليس ضروريا أن يراد بالنصر والفتح هنا فتح مكة، لأن القرآن الكريم قد أنبأ عن هذا الفتح بوضوح تام في آيات عديدة أخرى، فما كان بعدها حاجة لإنزال سورة بعينها للإشارة إلى فتح مكة خاصة. فمثلا قد أنبأ الله تعالى عن فتح

مكة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾(القصص:٨٦).. أي يا محمد، إن ربك سيعود بك إلى مكة ثانية. والبديهي أن الرسول ﷺ ما كان ليرجع إلى مكة -التي كان العدو مستوليا عليها- إلا بفتحها.

كذلك قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨١). وهذا دعاء قد علّمه الله رسوله ﷺ بالوحي، واللهُ لا يعلّم بوحيه دعاء إلا إذا كان سيأتي موافقًا للأحداث. لقد علَّمه الله تعالى أن يقول رب اجعلْ خروجي من مكة سببًا لنجاحي وآية خالدة، واجعلْ دخولي مكة سببًا لنجاحي وآية خالدة.

فما دام الله تعالى قد أخبر رسوله ﷺ بفتح مكة قبل نزول سورة النصر بفترة طويلة، فليس هناك مِن داعٍ لاعتبار أن سورة النصر تنبئ عن فتح مكة، ثم لا يمكن اعتبارها دليلاً على فتح مكة، لأن الثابت من الروايات أنها نزلت قبيل وفاة الرسول ﷺ كما بينت آنفًا.

فالحق أن قول الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كان نبوءةً تتعلق بالزمن اللاحق لوفاة الرسول ﷺ لا بفتح مكة، حيث أخبر الله تعالى أن الفتوحات التي يحرزها محمد ﷺ ليست محصورة في حياته، بل سوف تستمر بعده أيضا. وبالفعل قد بدأت الحرب بين المسلمين وقيصر الروم في عهد أبي بكر، حتى اكتملت هزيمة قيصر الروم وكسرى فارس في عهد عمر رضي الله عنه. فالحق أن الله تعالى قد تحدث في سورة النصر عن الفتوحات التي كانت بعد الرسول ﷺ في عهد أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- لأنها هي التي يمكن أن تجلب السكينة له ﷺ وتشفي صدره، لأن الإنسان إذا اقترب أجله قلق بشأن نجاح مهمته واستمرارها بعده، فطمأنَ الله رسوله ﷺ في سورة النصر بألا حاجة للقلق، لأن الفتوحات الإسلامية لن تنتهي بوفاته، بل ستستمرّ بعده، وسوف يصبح الإسلام غالبا في العالم. غير أن الله تعالى أمره ﷺ أن يدعو من أجل المسلمين الجدد الذين يدخلون في دين الله أفواجًا لكي تتم تربيتهم بأحسن وجه، ولا يسبّب دخولهم في الإسلام إلى وضْع أساسٍ للفساد، وإذا حصل خللٌ، هيّأ الله الأسباب لإصلاحه.

قال القسيس "ويري" في تفسيره للقرآن الكريم أن سورة النصر قد اختُلقت في مكة -كما تذكر بعض الروايات أنها نزلت بعد غزوة حنين- وإنْ كانت تشبه السورَ المدَنية أسلوبًا. ثم إن هذا القسيس ينقل رأي المستشرق "نولدكه" بأن سورة النصر قد لُفّقتْ حين كان محمد (ﷺ) قد أعدَّ عُدّته للإغارة على مكة، وكان واثقًا بقوته، ويرى آثار انتصاره، ولذلك نجد هذه السورة تكشف أمل نجاح دينه. ثم يقول "ويري" أننا نتوصل بهذه الأمور إلى أن هذه السورة قد نزلت في السنة الثامنة للهجرة.

إن المستشرقين والقسيسين يرون أن القرآن الكريم ليس من وحي الله تعالى، بل هو من اختلاق محمد -والعياذ بالله- ولذلك يحكمون على كون سوره مكيةً أو مدنيةً بناءً على أسلوبها (تفسير القرآن للقس "ويري"). والواقع أن هؤلاء لا يعرفون من العربية ما يساعدهم على التوصل إلى نتائج سليمة بالنظر في عبارة القرآن الكريم، دَعْ عنك أن يعرفوا من أسلوب سوره أنها مكية أو مدنية. إنما هو مجرد ادعاء فارغ. عندهم معيار واحد لاعتبار السور مكيةً أو مدَنية بناءً على أسلوبها، وهو أن السور التي آياتها قصيرةٌ ومسجّعة هي مكية عندهم، والسور التي آياتها طويلة وغير مسجّعة هي مدَنية عندهم. مع أن القرآن نفسه يبطل معيارهم هذا، فسورة "نوح" مكية، ولكن آخر آية فيها طويلةٌ نسبيًا. ثم إن سورة الدهر (الإنسان) مدَنية، ولكن آياتها مسجّعة وليست بطويلة أيضا. ثم إن سورة الأنفال مدَنية يقينا، بل قد نزلتْ قريبا من فتح مكة، ولكن فيها آيات يجب اعتبارها مكيةً بحسب مَبدئهم المزعوم هذا، كقوله تعالى ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأَنْفال:٤٣).

فالحق أن زعمهم بمعرفة زمن السور القرآنية بأسلوبها زعمٌ باطل، فهو ليس بقاعدة سليمة، كما أنهم لا يعرفون من العربية ما يجعل قولهم هذا معقولا. الحق أن القسيس "ويري" حين لم يجد سورة النصر موافقةً لمعياره المختلق، قال إنها لُفِّقتْ في مكة، وإن كانت تشبه بأسلوبها السور المدنية.

الحق أن القرآن الكريم كتاب أنزله العليم الخبير، وليس من اختلاق بشر، كما أن أسلوب بيانه لا يتغير بنزوله في مكان معين. الواقع أن تقدير سوره مكيةً أو مدنيةً بالنظر في أسلوبها لطريقةٌ خاطئة يتّبعها المستشرقون.

لقد نقل "ويري" قول "نولدكه" أيضا بأن هذه السورة قد لُفِّقتْ حين كان محمد (ﷺ) قد أعدَّ عدّته للهجوم على مكة، وكان واثقا من نجاحه، وكأنه يريد أن يقول بأن محمدا (ﷺ) قد أعلن نجاحه برؤية الظروف المواتية. الحق أن رأيه هذا منشؤه التعصب فقط؛ فإذا كان النبي ﷺ قد قام بتأليف هذه السورة من عنده برؤية الظروف المواتية -والعياذ بالله- فكيف علم حتى في أوائل الفترة المكية أن معارضته ستشتد وتبلغ الذروة حتى يضطر للهجرة من مكة، ثم يدخلها فاتحا بعد فترة، ولكنه لن يتخذها مركزا له، بل سيرجع إلى المدينة ثانية ليقيم فيها؟ إن الإنسان لا يعرف هل سيعيش غدًا أم لا، فكيف استطاع محمد رسول الله ﷺ أن يتنبأ -بهذا التحدي- عن تلك الأحداث التي لا يمكن أن تخطر بالبال؟ فمثلاً قال الله تعالى في سورة البلد -وهي مكية، ويعتبرها المستشرقون من أوائل ما نزل في مكة-: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:٢-٣) (تفسير القرآن للقس "ويري")، فأنبأ الله تعالى هنا عن هجرة محمد ﷺ من مكة، ثم عودته إليها فاتحا، وإقامته فيها مؤقتا. كذلك قد أنبأ الله تعالى في سورة القصص -وهي مكية- عن هجرة الرسول ﷺ ثم قال مباشرة: ﴿إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٦).. أي أن ربك سيعود بك إلى مكة فاتحا.

وكل هذه أمور غيبية من المستحيل أن يعرفها الإنسان بالقياس والتخمين، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد. وعليه فلا بد من القول إن رسول الله ﷺ كان على صلة بالله العليم الخبير، وهو الذي قد أخبره بها. والأمر لا ينحصر في نبأٍ أو اثنين، بل هناك عشرات النبوءات التي ذكرها القرآن الكريم، وكل من لم يُعْمِه التعصب إذا تدبر فيها قليلاً فلا يملك إلا الاعتراف بأن محمدا ﷺ هو رسول الله حقا.

خذوا مثلاً غزوة الأحزاب، حيث جاءت فيها كل القبائل العربية للهجوم على المدينة بعدد هائل، ولم يكن المسلمون يساوون مقابلهم شيئا، ولكن الله تعالى

حماهم، حتى هرب الأعداء بأنفسهم دون أن يضرّوا المسلمين شيئا. وكان الله تعالى قد أخبر النبي ﷺ بكل هذه الأمور سلفًا وهو في مكة، حين لم يكن ليخطر ببال أحد أنه ﷺ سيهاجر منها، ثم ستقع الحروب بين الطرفين، حتى يجتمع العرب كلهم بكل قواهم للقضاء على المسلمين، ولكنهم سيُهزمون. وقد أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بذلك في سورة القمر –هي سورة مكية– فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. عندما كان المسلمون يحفرون خندقًا حمايةً لهم قبيل غزوة الأحزاب، ظهرتْ صخرة عند الحفر و لم يستطيعوا كسرها، فأُخبر النبي ﷺ، فجاء لكسرها، فضربها بالمعول، فخرجت شرارةٌ فكبَّر، فضرَبها ثانيةً، فخرجت شرارة أخرى فكبّر ثانية، ثم ضربها مرة ثالثة، فخرجت شرارة فكبّر. فسأله الصحابةُ: يا رسول الله، لماذا كبّرت في كل مرة؟ قال ﷺ: لقد أُريتُ في المرة الأولى قصورَ كسرى، وأخبرَني جبريل أن أمتي ستستولي عليها، وأُريتُ في المرّة الثانية القصورَ الحمراء للرومان والشاميين، وأخبرتُ أنها ستقع في قبضة أمتي، وأُريتُ في المرة الثالثة قصورَ صنعاء، وأُخبرت أن الله تعالى سيعطيها المسلمين. (الكامل لابن الأثير: الأحداث في السنة الخامسة من الهجرة، والبداية والنهاية: ج٤، عزوة الخندق)

قد أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الفتوحات حين لم يكنْ بوسع أحد أن يتصورها. ثم وقعت بعد ذلك أحداث يستحيل فيها انتصاره ﷺ حتى قال المنافقون ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا﴾(الأحزاب:١٣)، وقالوا للمسلمين ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾(الأحزاب:١٤).. أي قد ضاقت عليكم الأرض وانتهى أمركم؛ إذ لا قِبل لكم بقبائل العرب كلها، فارجعوا إلى دين آبائكم. ومع ذلك تحقق ما قال الرسول ﷺ وبطل ما ظنّه الظانّون؛ إذ هربت القبائل العربية من أرض المعركة، و لم يستطيعوا أن يضرّوا المسلمين شيئا. ثم وقعت أحداث أدّت إلى فتح مكة وازدهار الإسلام واستيلاء المسلمين على قصور كسرى وقيصر.

فليخبرنا القسيس "ويري" وأمثاله: أهذه الأمور كلها هي مِن قبيل التخمين والقياس؟

ولندَعْ هذه النبوءات جانبًا، إذ قد يقول معاند أنها من اختلاق محمد (ﷺ)، ولكن ماذا سيقول هؤلاء عن الأنباء التي أدلى بها النبي ﷺ عن الزمن الأخير؟ فمثلاً قد أنبأ ﷺ أنه سيأتي على المسلمين زمان يكونون فيه مسلمين بالاسم فقط، وتنتهي حكوماتهم، وتنتشر المسيحية في العالم، ولكن الله تعالى في النهاية سيبعث المسيح والمهدي ليجعل الإسلام غالبًا مرة أخرى (انظر: مشكاة المصابيح، كتاب العلم وشعب الإيمان للبيهقي). فليخبرْنا القسيس "ويري" وأنصاره كيف عرف محمد ﷺ هذه الأمور الغيبية؟ فثبت أن كل ما ذكره الرسول ﷺ من نبوءات، إنما كانت من تعليم علام الغيوب، وما كانت تخمينًا وتلفيقًا منه. فقولهم بأن محمدا ﷺ قد لفَّق سورة النصر بالنظر إلى الأحوال السائدة آنذاك، ليس إلا نتاج التعصب أو سوء الفهم.

لقد قال "ويري" إن زمن سورة النصر هو السنة الثامنة من الهجرة، ولكنه قول غير صائب بحسب تحقيقنا. ولو سلّمنا جدلاً أن هذا هو زمن نزولها، فلا بد من التسليم بأن ما قاله محمد ﷺ قد تحقّقَ فعلاً، وأن ما ذكرتْه سورة النصر بأن الناس سيدخلون في دين الله أفواجًا، قد وقع في السنة التاسعة والعاشرة للهجرة، مما كان دليلا واضحا على أن محمدا ﷺ كان رسول الله حقًّا.

الترتيب والربط: وليكنْ معلوما أن سورة النصر لها صلة خاصة بعصر الرسول ﷺ طبقًا لترتيب مواضيع السور الذي ذكرته من قبل. لقد قلت مرارًا أنه يتضح من مضامين السور الأخيرة مِن جزء (عم) أن سورةً منها تشير إلى البعثة الأولى للنبي ﷺ، بينما تشير السورة التالية لها إلى بعثته الثانية، وقد بدأ هذا الترتيب من سورة "البيّنة"، التي تشير إلى البعثة الأُولى للنبي ﷺ، بينما تشير السورة التي تليها –وهي سورة الزلزلة– إلى بعثته الثانية، وهلمّ جرًّا. ولكن هذا لا يعني أن السورة التي تتحدث عن الزمن الأول للإسلام لا تتحدث عن الزمن الأخير له مطلقا، أو أن السورة التي تتحدث عن الزمن الأخير للإسلام لا تتحدث عن الزمن الأول إطلاقًا.

كلا، بل كل سورة تتحدث عن العصرين عمومًا، غير أن إحداها تركّز على الفترة الأولى للإسلام خاصة، والأخرى على الفترة الأخيرة له.

وقد قلت من قبل إن سورة "الكافرون" تتحدث عن البعثة الثانية للرسول ﷺ خاصة، أي أن مضمونها أكثرُ انطباقا على الزمن الحالي، وعليه فموضوع سورة النصر يجب أن ينطبق على عصر الرسول ﷺ أكثر.

إن أول صلة لسورة النصر بسورة الكافرون هي أن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ وأتباعَه في سورة الكافرون أن يعلنوا للكافرين بأن من المحال أن يعبدوا آلهة الكافرين ويتّبعوا طريقة عبادتهم، كما أن الكافرين لن يتركوا طريقة عبادتهم. وقد جاءت سورة النصر بعد سورة الكافرون لتشير إلى موضوع لطيف؛ بيانه أن الإسلام سوف يحرز فتوحات عظيمة عن قريب، وسيرى محمد ﷺ وأتباعُه بأُمّ أعينهم أن الله تعالى قد أيّد موقفهم، فكيف يمكن بعدها أن يتّبعوا الطريق الذي لا يؤيّده الله؟ ثم إنه طريق ثبت فشله. كذلك حين يرى الكفار بأم أعينهم أن حزبهم قد تشتّتَ، وأن رجالهم الأكفاء قد انضموا إلى محمد ﷺ، فسيدفعهم ضميرهم للدخول في الإسلام، وإن كانوا يحبون الشرك بطبيعتهم. سيضطرون لاتّباع طريقة عبادة المسلمين في الظاهر، ولكنهم سيفعلون ذلك نتيجة معجزة يُريها الله تعالى، وليس عن رضا وطواعية، إذ لو أنهم خُيِّروا لاتّباع ما يرضيهم فما كانوا ليتبعوا طريقة عبادة الإسلام، بل لآثروا تقليد ما وجدوا عليه آباءهم.

وهناك علاقة أخرى بين آخر آية من سورة الكافرون وسورة النصر، وهي أن الله تعالى قد قال في آخر سورة الكافرون ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. أي أيها الكافرون، إن مفهوم الدين.. أيْ الغلبة.. عندكم، هو أنّ مَن حادَ عن دينكم قليلا حملتم عليه السلاح أو العصا لضربه بل وقتْلِه، لتقهروه على عبادة أصنامكم وآلهتكم. ولكنها ليست غلبةً عند الإسلام، بل هزيمة، إنما الغلبة عند الإسلام تقديم براهين تفتح القلوب وأدلةٍ تقنع العقول، حتى يستسلم العاقل أمامها ويرضى بالطاعة والانقياد عن طيب نفس إلى الأبد، وبدلاً من اللجوء إلى الجبر والإكراه في أمر الدين. فيجب تقديم الأدلة والبراهين، ويجب أن يعطى المرء حرية كاملة في

اعتناق ما يشاء. لقد استخدمتم أيها الكافرون سلاحكم، واستخدم المسلمون سلاحهم، وستظهر النتيجة بعد أيام، حيث ترون أن قومكم كلهم سيتركونكم ويُقبلون على محمد أفواجًا مع لجوئكم إلى الجبر والإكراه. وواضح أنه إذا دخل قومُكم في الإسلام، فلا حاجة للمسلمين أن ينضموا إليكم، وهكذا يعرف الجميع صدق ما ادعاه القرآن في آخر سورة الكافرون بأن نظرية المسلمين تختلف عن نظرية الكافرين، وستثبت الأيام صدق نظرية المسلمين التي تقول أن الذين ينتصرون بالدليل والبرهان هم المنتصرون، وأن الذين يلجأون إلى السيف والعصا هم المنهزمون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

نصْر: نَصَرَ المظلومَ نصرًا: أعانَه؛ ونصَر فلانا على أعدائه ومِن عدوّه: نجّاه منه وخلّصه وأعانه وقوّاه عليه. (الأقرب)

الفتح: فتَحَ الحاكمُ بين الناس: قضى؛ وفتَح السلطان دارَ الحرب: غلب عليها وتملَّكَها؛ وفتَح: جَدَّ وأقبلت عليه الدنيا؛ وفتَح الله على نبيّه فتحًا: نصَره.

وقال الإمام الراغب: "الفتح إزالةُ الإغلاق والإشكال" (المفردات).

وعليه فقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعني: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وعونه، سيزيل الله كل عائق يحول دون اتّباع الكفار لطريقة العبادة في الإسلام، فيدخل الناس في الإسلام أفواجا؛ لأن طبائع الكفار ستُبدَّل ويفتح الإسلام قلوبهم.

التفسير: لقد ذكرتُ من قبل أن هذه السورة نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بسبعين يوما فقط، وأن الله تعالى قد أخبره مع نزولها أن أجله قريب. والإنسان إذا عَلِم أنه على وشك أن يغادر هذه الدنيا تاركًا وراءه أقاربه وأعزّته، أصابه القلق

بشأنهم، ولكنْ ما كان الرسول ﷺ ليحزن بشأن ذوي القرابة المادية، لما بوّأه اللهُ مِن مكانة روحانية عظيمة، وإنما كان يخاف على أمته أن تُصاب بفتنة، وإذا أصيبت فما السبيل لخلاصها منها. ثم إن من الطبيعي أن أتباع النبي يصابون بالهلع عند وفاته عادةً ويعتبرونها في غير أوانها، وأعداء النبي أيضا يقولون أنه تمكّنَ من إدارة أموره في زمنه، ولكن هذه الغرسة التي غرسها سوف تموت بموته. فأنزل الله سورة النصر ليُطَمْئن نبيَّه ﷺ بأن لا داعي للخوف على أمته، لأن الفتوحات والانتصارات التي وقعت في زمنه لن تتوقف بموته، بل سيتسع نطاقها باستمرار، وإذا كان الناس قد دخلوا في الإسلام بالمئات الآن، فسوف يدخلون بعده بالآلاف، وسيرتوي الناس من نبْعه فوجًا بعد فوج، وسيقيم الله تعالى بعده رجالا ينهضون بأمته، ولن تقضي عليها الفتن، وأن الله تعالى سيدمر فرحة المعارضين الذين يظنون أن جماعته ﷺ ستموت بموته، كلا، بل سوف يكتب الله للإسلام ازدهارًا تلو ازدهار، وسيزيل العراقيل كلها كلية.

إذن، فإن الله تعالى قد ربط على قلب رسوله ﷺ في سورة النصر من ناحية، ومن ناحية أخرى هدّأ مِن رَوع أتباعه ﷺ بأن لا يصابوا بالهلع والذعر عند وفاته، فإن الله الذي كتب لنبيه ﷺ النجاح هو إلهٌ حيّ لا يموت، وسيحافظ على أمته بعد وفاته، بل سوف يؤيد بنصره أصحابَه -الذين يصيرون بوفاته كالأيتام- أكثر من ذي قبل، ويفتح لهم أبواب عونه على مصراعيها، حتى يدخل الناس في الإسلام أفواجا برؤية تأييد الله ونصرته هذا، وسيقوم ملكوت الله في العالم، وتشرق الأرض بنور وحدانية الله، كما أن الله تعالى سوف يقضي على فرحة المعارضين الزائفة.

وقد تحقَّق هذا الوعد الربانيّ بما لا يجد بعده شخص غير متعصب إلا الاعتراف بأن محمدا ﷺ رسول الله حقا. فإننا نرى أنه لما توفي النبي ﷺ انهار صحابي شجاع مثل عمر رضي الله عنه أيضا، من شدة الصدمة والخوف، إذ ظنّ الصحابة أن وفاة النبي ﷺ قد سبقت أوانها. ثم ظهرت بوادر الفتنة عند انتخاب خليفة الرسول ﷺ أيضا، لأن الأنصار أرادوا الخليفة منهم، بينما رأى المهاجرون أن العرب لن يرضوا بخليفة إلا من قريش. ففرح المعارضون من يهود وغيرهم برؤية هذا المشهد، وظنوا أن

الإسلام قد انهار وانتهى، ولكن الله تعالى نهض بالأمة الموشكة على الانهيار، وأقام بينهم سيدنا أبا بكر ﷺ ليأخذ زمام أمورهم بيده، وأمال إليه قلوب الأنصار مع أنهم أرادوا أن يكون الخليفة منهم.

وما كاد شمل المسلمين أن يلتئم حتى ارتدت بعض القبائل وأعلن رؤساؤها استقلالهم عن الدولة الإسلامية، وظهر العديد من المتنبئين، كما رفضت بعض القبائل أداء الزكاة، بالإضافة إلى اختلاف الصحابة في بعث جيش لمحاربة الروم، إذ كان الرسول ﷺ قد أراد في مرضه الأخير بعْثَ جيش تحت إمرة أسامة بن زيد ليأخذ ثأر أبيه زيد بن حارثة وغيره ممن استشهدوا في غزوة مؤتة، ولكنه ﷺ توفي قبل خروج الجيش. والحق أن الشجاع قوي القلب أيضا يصاب بالهلع برؤية هذه الظروف الحرجة والأخطار المحدقة والأهوال الهائلة، ولكن الله تعالى أنزل سكينته على أبي بكر ﷺ، فلم يصبْه خوف ولا هلع، بل ظلَّ واثقًا كل الثقة بتحقق وعد الله تعالى؛ وبأن السماء والأرض يمكن أن تزولا، ولكن لا تبديل لكلمات الله، ذلك لأن قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كان يرفع من معنوياته ﷺ. لقد أشار عليه الصحابة ألا يبعث جيش أسامة لمحاربة الروم في هذه الظروف الحرجة، بل يقضي أولاً على الفتن الهائجة داخل البلاد من قبل المرتدين ومانعي الزكاة والمتنبئين الكذابين، ولكنه ﷺ رفض رأي الصحابة بشدة قائلا: كيف يحقّ لأبي بكر أن يمنع الجيش الذي أمر الرسول ﷺ ببعثه؟ سيسير هذا الجيش حتى ولو أغار العدو على المدينة وجرّت الوحوشُ جثثَنا في شوارعها. (البداية والنهاية: ج ٦ فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد)

هذه الكلمات لا يمكن أن تخرج إلا من فم إنسان قد غمر قلبَه اليقينُ بأن غلبة الإسلام قدَر مقدور لن يزول وإنْ عارضته قوى العالم كله.

من أين نال أبو بكر ﷺ هذا اليقين والثبات والشجاعة؟ إنما أنزل عليه هذه السكينةَ ربُّ السماء الذي طمأنَ نبيه ﷺ عند وفاته ألا يحزن، لأن ملائكة الله ستنزل بعده بالنصر والفتح دائما إلى أن ترفرف راية الإسلام عاليةً في العالم كله.

لقد أرسل سيدنا أبو بكر ﷺ جيش أسامة إلى الشام معارضًا بذلك رأي الصحابة، فرجع الجيش بعد ٤٠ يوما منتصرا، ورأى المسلمون بأعينهم نصر الله نازلاً من السماء. ثم بعدها انصرف أبو بكر إلى المتنبئين الكذابين وقضى على فتنتهم نهائيا. ولقي المصير نفسه أهل الردة أيضا. أما الذين رفضوا أداء الزكاة فكان عددهم كبيرا، وكان الصحابة يخالفون رأي أبي بكر في محاربتهم قائلين: كيف يمكن محاربة قوم يؤمنون بوحدانية الله والرسالة لمجرد إنكارهم أداء الزكاة؟ فقال أبو بكر بكل شجاعة: واللهِ، لو منعوني عقالَ بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لحاربتهم عليه. فلما رأى عمر إصرارَ أبي بكر على ذلك، اعترف بصحة رأيه، وأدرك أنه لو سُمح لهؤلاء بعدم أداء الزكاة اليوم، فإن الناس سيتجرَّءون على الدعوة إلى ترك كل أحكام الإسلام من صلاة وصوم شيئا فشيئا، فلن يبقى من الإسلام إلا اسمه* فحارب أبو بكر ﷺ منكري الزكاة في تلك الظروف الحالكة المخيفة، وخرج من هذا الموطن أيضا فاتحا منتصرا، ورجع المنحرفون كلهم إلى الصواب.

الواقع أنه لولا أن الإسلام من الله تعالى ولولا أن محمدا ﷺ من رسل الله المصطفَيْن الصادقين، لقضت هذه الأحداث على المسلمين، وإلا فكيف خرج المسلمون من النيران الملتهبة ومن فم الموت سالمين؟ وكيف حالفَهم الفتح والنصر في كل موطن؟ إنما سببه ذلك الوعد الذي وعد به رسوله ﷺ بألا يخاف على قومه من بعده، لأنه تعالى سوف يأخذ بأيديهم ويجعلهم غالبين في كل موطن.

و لم تنته الفتن الداخلية حتى نشبت الحرب بين المسلمين وبين دولة الفرس التي كانت قوية ومتقدمة جدا، وكان لديها الكثير من الجيوش المدربة والعدة والعتاد، وكان المسلمون إزاءها كالعصفور مقابل الصقر، ولكن ما إنْ بدأت المعارك في

* كان القصد مِن تركهم لتأدية الزكاة إلى الخليفة إعلان التمرد عليه وعدم الإقرار بشرعيته؛ وهذا كان مقدمة لنقض الإسلام ومحاربته وتحريض الناس على تركه. (المترجم)

العراق حتى مُني الفرس بهزيمة بعد هزيمة في كل موطن. و لم ينتهِ المسلمون من قتال الفرس حتى نشبت الحرب بينهم وبين الروم في الشام ومصر، فاضطروا لتوزيع جنودهم إلى دمشق والأردن وحمص وفلسطين، إذ اضطرمت نيران الحرب في كل جبهة. ومرض أبو بكر ﷺ وتوفي إلى رحمة الله في مثل هذه الظروف الحرجة، فأخذتْ نصرة الله بيد عمر ﷺ وبوّأته مقام الخلافة، وظلت الحروب محتدمة في كل مكان في عهد خلافته، حتى اضطر المسلم الواحد أحيانًا لمحاربة ألف من الأعداء. لقد داست جيوش المسلمين البالغة عدةَ آلاف فقط جيوشَ الأعداء البالغة مئات الآلاف، وخرجوا من كل معركة منتصرين، وقضوا على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية القويتين، رافعين راية الإسلام مرفرفةً عاليًا في مصر والشام وفلسطين وحتى ثغور الهند وشمال إفريقيا. وفي عهد عثمان ﷺ لم يزل المسلمون يتقدمون كالسيل الجارف حتى فتحوا خراسان وأفغانستان والسند ومناطق شمال إفريقيا كطرابلس وتونس والمغرب والجزائر وغيرها، حتى بلغوا ثغور البلاد الأوروبية وداست خيولهم كل هذه الأقطار.

الحق أن هذه الانتصارات كلها كانت تحقيقًا لوعد الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فلولا أن محمدا ﷺ هو رسول صادق لما استطاع المسلمين لَمَّ شملهم، دَعْ عنك أن يحرزوا المزيد من الانتصارات بعده ﷺ. إنهم لم يظلّوا بعده ﷺ متحدين على يد واحدة فقط، بل حالفهم الفتح في كل موطن. لقد وقع كل ذلك بحسب ما وعد الله رسوله قبيل وفاته ﷺ.

والجدير بالذكر هنا أن لفظ الفتح قد جاء هنا معرفًا باللام، ومن قواعد العربية أن اللام تفيد التعريف.. أي أن المخاطَب يعرف الأمر المذكور، فإذا قلتَ مثلا: رجلٌ، فتعني أي رجل، ولكن إذا قلت: الرجل، فتعني شخصا معينا تعرفه والمخاطب أيضًا، وعليه فقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعني أن محمدا ﷺ يعرف هذا الفتح الذي يوعد به جيدا. وهذا المعنى صحيح تماما، لأن الله تعالى قد أراه مشاهد هذا الفتح في الكشف، وبشّره أن المسلمين سيفتحون بلاد الفرس والروم عن قريب. فمثلاً عندما خرج الرسول ﷺ مهاجرا من مكة كان "سراقة"

يطارده بنية شريرة، ولكن الله تعالى حفظ رسوله إذ غاصت قوائم فرس سراقة في الرمال مرة بعد أخرى، فناداه النبي ﷺ وقال: يا سراقة، إني أرى في يدك أسورة كسرى مَلِكِ الفرس. وسراقة لم يؤمن عندها بل آمن فيما بعد، وقد كانت أسورة كسرى من بين الغنائم التي أتت في عهد عمر رضي الله عنه، فألبسها سراقة.

ثم عندما كان المسلمون يحفرون الخندق لحمايتهم من العدو في غزوة أحد، ظهرت صخرة لم يستطيعوا كسرها، فأُخبر النبي ﷺ فجاء بمعوله وضربها ثلاث مرات، وفي كل مرة كبّر حتى انكسرت، فقال لصحابته: أتعلمون لماذا رفعتُ هتاف التكبير في كل مرة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عندما ضربتُ الضربة الأولى تراءت لي قصور كسرى وأُخبرت أن أمتي ستفتحها فكبّرت. ثم لما ضربت الضربة الثانية ظهرتْ لي قصور الروم والشام الحمراء وأُخبرت أنها ستقع في قبضة أمتي، فكبرتُ. ثم في المرة الثالثة أُريت قصور صنعاء، وبُشّرتُ أن أمتي ستستولي عليها.

فالحق أن رسول الله ﷺ كان على علم بكل هذه الفتوحات التي وقعت في عهد أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- إذ رآها في الكشف، ولذلك قد أُدخلت لام التعريف على "الفتح" هنا، حيث قال الله لرسوله يا محمد، عندما يأتي نصر الله الخاص وتقع هذه الانتصارات الموعودة التي رأيتَها في الكشف، سيدخل الناس عندها في دين الله أفواجا.

ويمكن أن تكون اللام في ﴿الفتح﴾ للكمال، والمعنى: إذا جاء الفتح الكامل.

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

رأيتَ: رأى يرى رؤيةً: نظَر بالعين أو بالقلب. (الأقرب)

أفواجًا: الفوج: الجماعةُ من الناس؛ أو الجماعةُ المارّة السريعة. ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.. أي طائفة بعد أخرى. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يعني أنه عندما يأتي نصر الله والفتح المعهود وترى الناس يدخلون في الدين طائفة بعد طائفة.

والسؤال هنا: ما دام النبي ﷺ قد تُوفّي، فكيف رأى الناس دخلوا في دين الله أفواجا في عهد خلفائه؟

والجواب: لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن الرؤية لا تعني الرؤية بالعين فحسب، بل تعني أيضا رؤية الشيء بالقلب، أو العلم بالشيء، أو رؤيته في الكشف، كما يراد بالرؤية الخبرُ اليقين؛ إذ قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾(الفيل:٢)، مع أن واقعة أصحاب الفيل قد وقعت قبل ميلاده ﷺ؛ فالرؤية قد وردت هنا بمعنى العلم القطعي اليقيني. وعليه، فقوله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يعني أن الله تعالى سيريك بالكشف حتمًا مشهد دخول الناس في الإسلام أفواجا عندما يأتي نصر الله وفتحه، أو سوف يخلق مقدمات الفتوح القادمة، ليزيد قلبك يقينًا بأن الإسلام غالب حتما.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

فسَبِّحْ: سبَّح اللهَ: نزَّهه (الأقرب). فسَبِّحْ يعني: أعلِنْ براءة الله تعالى من كل عيب ونقص.

وَاسْتَغْفِرْهُ: غفَر الشيء غفرًا: ستَره؛ وغفَر المتاع في الوعاء: أدخله وستَره؛ وغفر الله له ذنبه: غطّى عليه وعفا عنه (الأقرب).

وورد في المفردات: الغفرُ: إلباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفرْ ثوبك في الوعاء.

وعليه، فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ يعني: اسأل الله تعالى أن يغفر ضعفك البشري، أي ادعوه ﷻ ألاّ يتطرق أي فساد في أمتك، بل تظل سائرة على الصراط المستقيم.

التفسير: التسبيح يعني تنزيه الله تعالى من كل عيب ونقص، والحمد يعني الإقرارُ بأن الله تعالى جامعٌ للمحاسن كلها. وعليه، فقوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني: لو توقفَ نصرنا وفتحنا بوفاة محمد، لَحُقَّ للمسلمين أن يقولوا إن الله تعالى لم يكن وفيًّا معنا، كما حُقّ للكفار أن يقولوا إن الفتوحات والانتصارات التي وقعت في زمن محمد إنما كانت تعود إلى عبقريته الشخصية، وتوقُّفها بعد وفاته دليلٌ ساطع على أن الإسلام ليس بدين حق. فتبرئةً لساحته ﷺ من هذين الأمرين، قد أخبر الله تعالى رسوله أنه لن يخذل المسلمين بعد وفاته، ولن يتيح للأعداء فرصة فرحة بإيقاف سلسلة الفتوحات والانتصارات هذه. وما دام الله تعالى قد نزّه ذاته عن هذه التهم المتوقعة بإنزال آيات سورة النصر، فمِن واجبك يا محمد أن تُعلن بين الناس جهارًا براءة الله تعالى من كل عيب ونقص، فلا هو يخذل عباده ولا يتركهم بلا ناصر ولا معين، ولا يخلف وعده. وحيث إنه تعالى قد كتب الغلبة للمسلمين رغم الظروف الصعبة وسوف يجعلهم غالبين في المستقبل أيضا، فحريٌّ بكم أن تتغنّوا بحمده وتعلنوا بين الناس أنه جامع للمحامد والمحاسن كلها.

لقد قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: "فسبِّحْ بحمد الله"، ذلك أن "الرب" يعني مَن يطوِّر الشيء مِن حالة أدنى إلى حالة الكمال، فكأن الله تعالى قد بين باستعمال كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ أنه يستحق الحمد، إذ نهض بالمسلمين مِن ضعفهم وجعَلهم سادة العالم؛ فمَنْ تفضّلَ عليهم لهذه الدرجة يستحق الحمد بلا شك.

ثم أشار الله تعالى بلفظ "الحَمْد" إلى أمر هام آخر، وكأنه قال: أيها المسلمون، لا يصيبنكم الزهو برؤية هذه الانتصارات، فلا تظُنُّنّ أنكم أحرزتموها نتيجة كفاءاتكم الذاتية، بل كلّ هذا من فضل الله تعالى، فعليكم أن لا تبرحوا تخرّون على أعتابه دائما حامدين له، لكي يزيدكم الله تعالى فضلا على فضل نتيجة شكركم.

باختصار، قد أمر الله تعالى بقوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أنْ أيها المسلمون، عليكم أن تعلنوا أن الله تعالى قد أنجز وعْد نصرته لنا، وهكذا أكد براءته من كل نقص، وأثبت أنه الأحقّ بالحمد والثناء.

أما قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، فاعلمْ أن الغفر هو التغطية أو الصيانة، فالاستغفار يعني الدعاء لطلب الحماية، فكأن المستغفِر يدعو الله تعالى أن يستره بحمايته، فلا ينكشف ضعفه البشري، أو أن يحميه الله تعالى بحيث لا يصدر منه الإثم.

لقد استخدم القرآن الكريم لفظ الاستغفار بمفاهيم واسعة، منها أن يسأل العبد ربه ﷻ أن يحميه من عقوبة ما صدر منه من المعاصي، وقد ورد الاستغفار بهذا المعنى بكثرة في القرآن الكريم، وهذا استغفار عامة المؤمنين. أما المؤمنون الكاملون فاستغفارهم يعني أنه إذا صدر منهم تقصير في إصلاح القوم فيغضّ الله عنه النظر ويعوّضه.

لقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ هنا بالاستغفار قائلا: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، بينما قال له في مواضع أخرى: ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فينشأ هنا سؤال: بأي معنى كان استغفار الرسول ﷺ؟ فهل كان ﷺ يستغفر لأنه صدر منه بعض الآثام، فأمره الله تعالى أن يدعوه أن يقيه من عقوبتها؟ أم أن لاستغفاره مفهوما آخر؟

ما زال المسيحيون يعترضون على المسلمين مستدلين بهذه الآيات قائلين: انظروا إلى رسولكم، فهو كان آثما ولذلك أُمر بالاستغفار، بينما لم ترِد أي كلمة بهذا المعنى في حق المسيح، فثبت أنه لم يكن آثما (تفسير القرآن للقس "ويري").

وقد واجه المسلمون في الردّ على طعنهم هذا مشكلة كبيرة. لقد حاولوا كثيرا الرد عليهم، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك قبل المسيح الموعود عليه السلام، ومن أجل ذلك قد تنصر الآلاف منهم، حتى كان من السادات (الأشراف) من ارتدّوا وتنصّروا. لقد خدعهم المسيحيون بورود لفظ الاستغفار بحق الرسول ﷺ في القرآن الكريم، فوقعوا فريسة لخداعهم، بدلاً من أن يردّوا عليهم.

ولمعرفة مفهوم الآيات التي ورد فيها لفظ الاستغفار بحق الرسول ﷺ، ينبغي أن نضع في الحسبان دائمًا أن الرسول ﷺ قد بُعث لهداية العالم وليجعل الضالين

المنحرفين الذين لا دين لهم أناسًا ربانيين، ولكي يطهر العصاة والآثمين من ذنوبهم ومعاصيهم. وقد بيّن الله تعالى مكانته السامية بقوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣٢).. أي: أيها الرسول، أعلِنْ بين الناس أنهم إذا كانوا يحبّون الله فعليهم أن يتّبعوك، فيصبحون من أحبّاء الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب ٢٢).. أي: أيها المسلمون، إنَّ لكم قدوة حسنة في رسولنا هذا، فإذا أردتم أن تكونوا من عبادنا المقبولين المقربين، فأسهلُ سبيل لذلك أن تتّبعوا هذا الرسول في أقواله وأفعاله وحركاته، لأنها أقوال الله وأفعاله وحركاته؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأَنْفال: ١٨).. أي يا محمد، لم ترمِ تلك الحفنة من الحصى، بل إن الله رماها.

ثم وصف الله نبيه ﷺ وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥).

فالنبي الذي يحظى الناسُ باتّباعه بلقاء الله وحبّه تعالى، وجعله الله أسوة حسنة لهم، واعتبر أقواله وأفعاله بمنزلة أقوال الله وأفعاله ﷻ، يستحيل أن يعني استغفاره أنه قد ارتكب إثمًا، فأَمَرَه الله تعالى أن يدعوه ليقيه من مغبة إثمه؛ ذلك أن الرسول إذا كان هو عرضة للإثم والمعصية، فكيف يأمر الله الناس باتّباعه؟ وكيف يجعله أسوة حسنة لهم؟ مما يدل دلالة واضحة على أنه ﷺ كان متنزّهًا عن كل معصية وإثم، ولم يكن استغفاره ليحميه الله تعالى من مغبة الآثام، وإنما كان بمفهوم آخر.

والسؤال هنا: ما هو ذلك المفهوم الذي أُريدَ من استغفار الرسول ﷺ هنا؟

اعلمْ أنّ الله تعالى قد أخبر في أوائل هذه السورة (سورة النصر) أنه سيظل ينصر المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ أيضا، وسيفتح عليهم أبواب الفتوحات والانتصارات، وسوف تتبارك الأمم منه ﷺ بعد وفاته، كما كانت تحظى ببركاته في حياته؛ أي قد أخبر الله تعالى نبيّه أن الناس سيدخلون في الإسلام ألوفا مؤلفة في وقت واحد. والبديهي أن قومًا إذا أحرزوا الانتصار، فتنشأ بينهم وبين الأمة المهزومة صلات، وتتسرب سيئات المغلوبين إلى الغالبين، ومن أجل ذلك نجد أن الأمم الغالبة تتأثر

دائمًا بمظاهر الترف والبذخ في البلاد التي تمرّ بها. ثم إن الفتوحات العظيمة تأتي بقوم هم أكثر عددا من الفاتحين بكثير، فيصعب تعليم هذه الأفواج الجديدة ورفْع مستواهم الديني بسرعة، بل إن الأمم المنتصرة تتأثر من سيئات الشعوب المنهزمة عند الاختلاط بها، بدلاً من أن تنفعها بما عندها من خلُق ومُثُل، مما يؤدي بالتدريج إلى نتائج مدمرة. والحق أن زمن تقدُّم أُمة وانتشارها وكثرتها، هو زمن انحطاطها وزوالها أيضا. فكان طبيعيا أن يصاب النبي ﷺ بالقلق عند خبر الفتوحات الإسلامية، فخاف أن تؤدي إلى بداية انحطاط أمته، وأخذه القلق على تربية هؤلاء المسلمين الجدد على ما يرام؟ إذ لن يتيسر لهم أستاذٌ كامل وهادٍ كامل ومزكٍّ عظيم مثل محمد ﷺ. فجوابًا على أفكاره هذه أمَر الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.. أي يا محمد، لقد أدّيتَ واجب تربية المسلمين وتزكيتهم على أفضل وجه، ومسؤوليتك هذه ستنتهي حينما تعود إلينا الآن، وسنتكفل بأمتك، فلا داعي للقلق. نعمْ، يمكنك أن تعمل ما بوسعك، فادعُ الله تعالى وتوسّلْ إليه بأن لا يحفظ المسلمين ولا ينصرهم فقط، بل يهيئ الأسباب لتربية الجدد منهم، فيجتنب كلهم الزلّةَ والعثار، وإذا تطرّقَ إليهم فساد أو خلل أصلحه الله برحمته.

مما يعني أن استغفار النبي ﷺ ما كان لنفسه، بل كان لأمته، فكان يدعو الله تعالى أن يحفظها، فلا يقع فيها أي فساد روحاني، وإذا وقع، هيّأ الأسباب لإصلاحهم.

ويتضح من الروايات أن الرسول ﷺ كان قد بدأ الدعاء بحسب هذا الأمر الرباني (الدر المنثور)، وقد أكدت الأحداث فيما بعد أن الله تعالى قد استجاب دعاءه، وأصلح كل خللٍ، وقضى على كل فتنة في أمته بُعيد وفاته، كما هيأ الأسباب للقضاء على كل فتنة تقع في المستقبل. فإننا نرى أنه لما وقعت فتنة الردة ومنكري الزكاة قضى الله عليها قضاء لا نظير له، وعاد الإسلام كما كان، ولولا القضاء على تلك الفتنة لما عاد الإسلام إلى نقائه وصفائه.

ثم عندما دخل النصارى بكثرة في الإسلام في زمن انتصاراته وأتوا معهم بعقيدة أن المسيح حي، وأنه البريء الوحيد من الإثم، أما سائر الناس بمن فيهم الرسول ﷺ

فهم آثمون! وقد انتشرت هذه العقيدة المسيحية الخاطئة بين المسلمين على نطاق واسع، حتى انتهزت المسيحية سوء فهمهم هذا للهجوم على الإسلام، مما جعل المسلمين يتنصَّرون، إلى أن أقام الله تعالى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام للقضاء على هذه الفتنة الصمّاء ولحماية الأمة بعد الرسول ﷺ بأربعة عشر قرنا، فاستردّ للإسلام مجده الغابر، حتى إن الإسلام -الذي لم يقدر على الدفاع من قبل، بل كان أهله يرتدّون عنه- قد شنّ هجوما مضادا على المسيحية والأديان الأخرى، فانهزمت في هذه المعركة، وأخذ أتباعها يدخلون في الإسلام بكثرة. ويوشك أن يرى كل شخص بأم عينيه غلبة الإسلام المادية، ويرى ضُعْفه قد تحوّلَ إلى قوة. وليس كل هذا إلا نتيجة استغفار الرسول ﷺ ودعائه.

بقي سؤال آخر وهو: إذن، ما هو مفهوم الآيات التي ورد فيها لفظ الذنب مع الاستغفار بحق النبي ﷺ؟ لأن معنى الذنب -كما ورد في القواميس- هو الجُرم، وعليه، فقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (غافر:٥٦، ومحمد:٢٠) سيعني: يا محمد، استغفرْ لجريمتك.

أما الجواب: فيجب ألا يغيبنّ عن البال بهذا الصدد ما قلته من قبل بأن رسول الله ﷺ هو النبي العظيم الذي لا يحظى الإنسان بوصال الله نتيجة اتّباعه فحسب، بل يصبح محبوبا عند الله تعالى، ثم إنه ﷺ النبي الذي قد جعله الله تعالى قدوة للعالم، واعتبر أقواله وأفعاله أقوالاً وأفعالاً لله؛ وعليه فمن المحال أن يكون القرآن قد قال في أي مكان إنه آثم. إنه ﷺ قد جاء لإنقاذ العالم من الإثم، ولو كان آثمًا بنفسه، فكيف يخلص الآخرين من الآثام؟ فثبت أن الآيات التي ورد فيها لفظ الذنب بحق الرسول ﷺ، لا يمكن أن تعني -على ضوء ما ذكره القرآن من مكانته ﷺ العليا- أن يكون الرسول ﷺ قد أُمر بالاستغفار بسبب آثام ارتكبها، وإنما كان استغفاره بمفهوم آخر.

ولمعرفة ذلك المفهوم هلمّ ننظر في الآيات كلها التي ورد فيها لفظ الذنب بحقه ﷺ.

والآية الأولى هي قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾(غافر:٥٦).

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(محمد:٢٠)

والآية الثالثة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح:٢-٣)

وهناك فرق بين ما ورد في آيات سورة الفتح وما ورد في سورتي محمد وغافر، وهو أن الله تعالى قال في سورتي محمد وغافر: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، بينما قال في سورة الفتح: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾.. أي أن الله تعالى قد غفر لك كل ذنوبك.

ولفهم هذه الآيات، يجب أن نتوجه أولاً إلى المعاجم التي ورد فيها: "الغَفْر هو التغطية"، بينما ورد عن الذنب: "ذنَبَه ذنبًا: تلاه فلم يفارق أثره. وذنَّب العمامةَ: أفضلَ منها شيئا وأرخاه." (الأقرب)

إذن، فالذنب: هو ما يأتي فيما بعد، أو هو الشيء الزائد، وعليه، فغَفْرُ الذنب يعني تغطية الشيء الزائد أو تغطية مفاسد الأحداث الآتية، ومن ثم فإن استغفار الرسول ﷺ لذنبه يعني: أن يدعو الله تعالى بالتوفيق لحمل أمور النبوة التي تفوق طاقته البشرية، أو أن يستر الله على مفاسد الأحداث الآتية.

والتدبر في آيات هذه السور الثلاث -التي ورد فيها الذنب بحق الرسول ﷺ- يكشف لنا أمرًا عجيبا يحلّ ما في هذه الآيات من إشكال حلاً لا يُبقي هناك أي اعتراض. ذلك أن كل هذه الآيات تتحدث عن هلاك أعداء النبي ﷺ وانتصاره عليهم.

فأُولى هذه السور هي سورة غافر -وهي مكية- وقال الله فيها: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.. أي يا محمد، اصبرْ على أذى العدو وانتظرْ اليوم الذي تنتصر عليهم، فيصبحون نادمين، واعلمْ أن وعد الغلبة هذا يتحقق حتمًا، وسوف تفتح مكة أيضا، فاستغفرْ لذنبك.

وسبق هذه الآياتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (غافر:٥٢-٥٥).

وكما قلت من قبل، فقد نزلت هذه الآيات في مكة حين كان المسلمون عرضةً للتعذيب الشديد، فقال الله لهم: أيها المسلمون، لا تضيقوا ذرعًا، واعلموا أننا ننصر رسلنا والمؤمنين بهم في هذه الدنيا، وسننصرهم يوم الفصل حين يقوم الشهود للإدلاء بشهاداتهم، يومئذ لن تنفع العصاة معذرتُهم شيئا، وسوف يُبعدون عن الله تعالى وسوف يدخلون دار السوء، ويعيشون فيها. واعلموا أننا قد آتينا موسى الهدى، وأورثنا بني إسرائيل التوراة التي كان فيها هدى وتذكير للناس.. أي كما أن بني إسرائيل ورثوا الأرض المقدسة ببركة التوراة، وأوتوا حظًّا من نعم الله تعالى، كذلك سيُعطي الله المسلمين كتابا كاملا، ويكتب لهم الغلبة المادية على العالم، فيستولون على مكة التي هي مكانهم المقدس، والتي هي في قبضة أعدائهم حاليا. وبعد نبأ الغلبة هذه يقول الله تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.. أي: أيها الرسول، لا تستعجلْ في تحقُّق وعد الغلبة هذه، بل اصبرْ، فإنه سيتحقق لا محالة، إنما عليك أن تستغفر لذنبك.

فتجد هنا أن الله تعالى قد أخبرَ نبيه ﷺ بهلاك أعدائه أولاً، ثم بغلبته وفتح مكة، ثم أمَره بالاستغفار.

أما سورة محمد، فقد سبق فيها آيةَ الاستغفار قولُ الله تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (محمد:١٩). إن موضوع سورة محمد كله يدور حول هلاك أعداء الإسلام، حيث أخبر الله تعالى أنهم سيُهزمون على أيدي المسلمين وسينتصر الإسلام، ثم قال الله

تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾.. أي أن أعداء الإسلام إنما ينتظرون تلك الساعة التي تفصل بين الصادق والكاذب من الفريقين، أما قبْلها فلا يحاولون التدبر في براهين صدق الإسلام. لقد ظنوا أنهم سيؤمنون إذا انكشف الأمر جليًا. فليعلمْ هؤلاء أن ساعة فتح مكة ستأتي بغتةً، غير أن علاماتها قد ظهرت بلا شك، فما الذي ينفعهم إيمانهم بعد حلول تلك الساعة؟ وبعد بيان هذا الموضوع، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاعلمْ أن الله القادر واحدٌ أحَدٌ، وبإشارته يتحرك كل شيء في الكون، وإذا جاءت تلك الساعة ستنزل ملائكة الله وتستميل قلوب الناس إليكم، وتمهّد لهم طريق الدخول في الإسلام، فعليك أن تستغفر في ذلك الوقت، ليس لنفسك فقط، بل للمؤمنين والمؤمنات، فإن الله تعالى خبير بأحوالكم.

وهنا أيضًا تجد أنه قد سبق هذه الآيةَ موضوعُ هلاك أعداء الإسلام، ثم بشّر الله تعالى بانتصار المسلمين، ثم أمر رسوله ﷺ بالاستغفار.

والآية الثالثة التي ورد فيها لفظ الذنب بحق الرسول ﷺ وأخبره الله أنه قد ستره هي أوائل آيات سورة الفتح، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. أي: أيها النبي، سنكتب لك فتحًا واضحا يدرك به الجميعُ أن دين الإسلام حقّ، وأنكم على الصراط المستقيم. ثم قال الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.. أي أن من نتائج هذا الفتح أن الذين قد آمنوا بك قبل الفتح ستتم تربيتهم ويتطهرون من نقائصهم، ويُسَدّ أي خلل بقي في تربيتهم بسبب ضعفك البشري، أما الذين يدخلون بعد الفتح في الإسلام فلو حصل في تربيتهم نقص نتيجة ضعفك البشري فأيضا يتداركه الله تعالى ويتم نعمته عليك بسبب أدعيتك.. أي سيقيم بين المسلمين دائما أُناسًا يقومون بمهمة إصلاح الأمة، ويصلحون مفاسدهم ليظلوا سائرين على الصراط المستقيم،

كما أن الله تعالى سيقيم حكم المسلمين في الدنيا ويهديهم إلى طريق الفلاح والازدهار، فلا يزالون يحظون بنعم الله تعالى، وسينصرك الله نصرا لن يبقى بعده مانع ولا معارض.

وهنا أيضا ترى أن الله تعالى قد ذكر أولاً الفتح والنصر، ثم أردفه ببشرى هلاك الأعداء، ثم وعد رسوله ﷺ بمغفرة ذنبه.

بعد التدبر في هذه الآيات ينشأ سؤال تلقائيا: ما هو الشيء الذي هو ذو علاقة بانتصار الرسول ﷺ وهزيمة أعدائه، وأُمِرَ بالاستغفار له وأُخبِرَ أنه قد غفره له؟

فاعلم أن النبي إنسان على كل حال، ومهما اتسع نطاق أعمال الإنسان فهي محدودة في كل حال. فالأستاذ مثلا، مهما كان عبقريًا، يستطيع أن يعلِّم في وقت واحد ٣٠ أو ٤٠ حتى ١٠٠ طالب أو أكثر قليلا، ولكنه لن يقدر على تعليم ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ طالب. والرسول ﷺ أيضا معلِّم، وقد قال الله تعالى عنه ﷺ: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(آل عمران:١٦٥)، وهو لا يقدر إلا على تعليم قدر محدود من الطلاب، فمتى يستطيع الإنسان أن يعلِّم ملايين البشر، ثم يحفِّظهم دروسهم أيضا، بل لا بد أن يحدث نقص في تعليمهم، فبعضهم يدرسون جيدا، وبعضهم يظلّ تعليمهم ناقصا، وبعضهم يظلون جهلاء كما كانوا من قبل. فلما بشّر الله رسوله ﷺ بفتح مكة وغيرها من الفتوحات ودخولِ الناس بعدها في الإسلام أفواجًا، أصاب قلبَه الطيب قلق شديد بأنه كان قادرًا على تعليم أتباعه القلائل القرآن، ولكن كيف سيعلم هؤلاء البالغين مئات الآلاف؟ فما هو علاج هذا التقصير الذي سيقع بسبب الضعف البشري في تعليمهم؟ فطمأنَه الله تعالى بأنه مما لا شك فيه أن هذا الفتح سيعقبه إسلام الناس أفواجًا، وسيأتون معهم بنقائصهم وعيوبهم، ولا شك أنهم لا يستطيعون أن يتعلموا كلهم على يدك، ولكن هذا النقص يمكن أن تتلافاه بأن تدعو الله تعالى قائلا:

رب، إنني لا أقدر على تعليم كل هؤلاء الجموع الغفيرة، فإني بشرٌ، فاسترْ ضعفي، وعلِّمْهم من عندك، وزَكِّهم بنفسك. فقوله تعالى ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ تنبيه رباني لرسوله ﷺ إلى أن يتوسل إلى الله تعالى لأن يتولى تعليم وتربية هؤلاء الذين يدخلون في دين الله أفواجا، ويحميه من مغبّة التقصير في تعليمهم، ويسد هذا الخلل برحمته.

والواضح أن عدم قدرته ﷺ على تعليم هذه الأفواج من المسلمين الجدد في وقت واحد ليس إثمًا، بل هو نتيجة ضعفه البشري، ومن أجل ذلك استخدم الله تعالى لفظ "الذنب"، بدلاً من الجُناح أو الإثم أو الجرم، لأن الإثم معناه أن يعصي المرء أمْر الله تعالى مع قدرته على العمل به. أما إذا لم يقدر على شيء لأن الله تعالى لم يعطه القدرة عليه، فهذا ليس إثما، وإنما يسمى ضعفا بشريا. فمرض المرء مثلاً ليس إثما، بل هو ضعف ناتج عن بشريته. فعدم قدرة النبي ﷺ على تعليم وتزكية هذا الكم الهائل من المسلمين الجدد لم يكن إثما، إذ لم يمنحه الله القدرة على ذلك، وكان أمرًا فوق طاقته، ولذلك أمره الله تعالى بالدعاء لسدّ النقص الحاصل في تعليمهم.

إذن، فكل الآيات التي ورد فيها كلمة ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لا تشير إلى أي إثم للرسول ﷺ، وإنما علّمه الله تعالى بذلك سبيلَ الاتقاء من نتائج ضعفه البشري، حيث أخبره أن الأعباء التي ستُلقى عليه تفوق طاقته، فعليه أن يدعو الله تعالى أن يعينه على حملها ويسدّ أي خلل حاصل.

وبالفعل نجد أن الذين آمنوا بعد الفتح و لم تتيسر لهم التربية على يد الرسول ﷺ وقتًا كافيا، ما ضاع إيمانهم أيضا، وما حُرموا نعمةَ الإسلام في زمن الفتن والابتلاءت. لا شك أن بعضهم قد ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى حظيرة الإسلام، ثم لم يشتركوا في الفتن التي أثارها الأشرار للقضاء على الإسلام فيما بعد؛ فالفتنة الكبرى التي حصلت في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه، قد

اشترك فيها أهل العراق ومصر والكوفة والبصرة ممن آمنوا بعد وفاة الرسول ﷺ، ولكن لم يشترك فيها أهل اليمن والحجاز ونجد، وهي البلاد التي قد فُتحت في عهد الرسول ﷺ، مما يدل على أن الله تعالى قد قام بتطهير أهلها الذين أسلموا في عهده ﷺ مما كان فيهم من ضعف وسيئات. يزعم البعض أن أهل الشام لم يشتركوا في هذه الفتنة بسبب ما كان يتمتع به معاوية من قوة ومنعة، ولكن الحقّ أن عدم ثورة أهل الشام على عثمان رضي الله عنه إنما كان من كرامة النبي ﷺ وتأثير دعائه. لا شك أن هذا البلد لم يُفتح في عهد الرسول إلا أنه ﷺ قد خرج لغزوه كما أشير إليه في سورة التوبة● في قصة الصحابة الثلاثة الذين لم يخرجوا في تلك الغزوة. فالحق أن عدم تورُّط أهل الشام في هذه الفتنة لم يكن عائدا إلى قوة أو ذكاء معاوية، إنما كان سببه أن بذرة الإسلام كانت قد بُذرت في تلك الأرض في عهد الرسول ﷺ، إذ وطأها قدمه المباركة، ولذلك استجاب الله تعالى دعاءه بحق أهلها أيضا.

ونعرف من التاريخ أنه لم يشترك في هذه الفتنة الكبرى من أصحاب الرسول ﷺ إلا ثلاثة، ولكن ذلك كان نتيجة سوء التفاهم، ثم إنهم قد تابوا بعدها.

إذن، فهذه من خصوصيات الرسول ﷺ التي يتميز بها على سائر الأنبياء، ذلك أن الله تعالى كلما ذكر في القرآن انتصاره ﷺ ودخول الناس في الإسلام بكثرة قرنَه بالأمر بالاستغفار، تذكيرًا له ﷺ بأنه سيكتب له العز والغلبة، وسينضم عدد هائل إلى أتباعه، فإذا كثر تلاميذه فعليه أن يخرّ أمام الله تعالى داعيا إياه: رب، قد فاق الأمر طاقتي، فأصلِحْ هؤلاء الجدد بنفسك. وقد وعده الله تعالى أنه سيستجيب دعاءه ويصلحهم ويطهرهم من ضعفهم وسيئاتهم.

● الآية: ١١٨. (المترجم)

فالحق أن الآيات القرآنية التي أُمر فيها النبي ﷺ بالاستغفار لذنبه لا تقصد أبدًا أنه صدر منه إثم أو معصية، إنما المراد أن الناس سيدخلون في الإسلام بكثرة نتيجة الفتوحات الآتية، فتتعاظم مسؤولية تربيتهم وتفوق طاقته، فليسأل الله تعالى التوفيق لأداء هذه المهمة الصعبة على ما يرام، وإذا حصل فيها تقصير نتيجة ضعفه البشري، فيستره بفضله ورحمته، ويسدّ الخلل ويصلحه بحيث لا تظهر عليه نتائج سيئة. وحيث إن الصحابة والصحابيات أيضا كانوا سيقومون بمهمة تربية المسلمين الجدد بتوجيه من الرسول ﷺ، لذلك أُمر ﷺ في سورة محمد بألا يدعو لنفسه، بل يدعو لهؤلاء الذين يقومون بتربية الجدد تحت إمرته بأن يقوموا بهذا الواجب بشكل سليم، ولو حصل نقص في ذلك فيستره ويحفظ من نتائجه السيئة.

ملخص القول أن قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ في سورة النصر يعني أن يدعو اللهَ تعالى أن يصلح المفاسد التي يمكن أن تقع في أمته نتيجة الفتوحات والانتصارات. أما الآيات الأخرى التي ورد فيها ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فالمراد أن يدعو النبي ﷺ ربَّه ﷻ بالتوفيق في تربية الناس الذين يدخلون في دين الله أفواجا نتيجة الفتوحات في زمنه، وإذا حصل نقص في تربيتهم فيستره ويحمي الأمة من مغبّته.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فاعلمْ أن "تابَ الله إلى العبد" يعني رجع عليه بفضله، والتوّاب صيغة مبالغة، ومعناه: الذي يرجع على العباد بفضله مرة بعد أخرى، وعليه فمعنى هذه الآية: أنك يا محمد، إذا دعوتَ الله فسوف يستجيب الله دعاءك حتمًا، وسوف يرجع على أمتك بفضله مرة بعد أخرى. والقرآن يخبرنا أن النبوة والصديقية والشهادة والصالحية أربعة إنعامات روحانية وعدها الله تعالى للأمة، ولكن ذلك فضل الله يؤتي من يشاء، فقد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء ٧٠-٧١). وقوله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.. أي أن الذي يطيع الله ويطيع رسوله ﷺ طاعة كاملة يدخل في زمرة قوم أنعم الله عليهم.. أي في النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. والفوز بهذه المكانات الروحانية يتوقف على فضل الله تعالى العليم الذي يعلم جيدا من هو أهله. فبقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، قد طمأنَ الله رسوله ﷺ أن أمته كلما كانت بحاجة إلى الحماية أو الإصلاح، فإن الله تعالى سيهيئ الأسباب لذلك، وسيقيم شخصًا كفئًا لإصلاح الفساد الذي يتسرب إليها. وتؤكد الأحداث أن الله تعالى قد استجاب دعاء النبي ﷺ هذا، وكلما تطرق إلى أمته فساد أقام الله تعالى بينها أحدا لإصلاحه. لقد ذكرتُ من قبل أنه لما تُوفي النبي ﷺ استولى الهلع على كبار الصحابة بمن فيهم الشجاع القوي مثل عمر (البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ)، فأقام الله تعالى أبا بكر على مقام الصديقية وجمع المسلمين على يد واحدة، ووفّق أبا بكر للتصدي لكل الفتن التي رفعت رأسها. كان ﷺ حليم الطبع جدا، ولكنه قضى على هذه الفتن بما يحير العقل. فالحق أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة استجابة أدعية الرسول ﷺ التي قام بها امتثالاً لأمر الله هنا.

ثم بعد وفاة أبي بكر ﷺ أقام الله سيدنا عمر ﷺ، وكانت الحروب قد نشبت بين المسلمين والفرس وأهل الشام في عهده، فظن الناس أن وفاة أبي بكر ﷺ قد سبقت أوانها (تاريخ أبي الفداء، ج١ ص ٢٢٢)، ولكن الله تعالى وفّق عمر ﷺ لقيادة المسلمين بأحسن وجه، حتى خضعت في عهده مصر والشام وفلسطين كلها لحكم المسلمين، وحُطِّمت إمبراطوريتا كسرى وقيصر، وقامت دولة قوية للمسلمين من جهة، ومن جهة أخرى اتحد المسلمون على يد واحدة، ولم يبق فيهم خلل ولا فساد، بل كتب الله تعالى للإسلام من الهيبة ما جعل المسلمين لا يكترثون

بكبار الملوك الجبابرة. فظهر تأثير أدعية الرسول ﷺ في شخص عمر رضي الله عنه. وكذلك كان عثمان وعلي رضي الله عنهما ثمرة دعائه ﷺ، بل إن قيام سيدنا عمر بن عبد العزيز وغيره من المجددين -الذين ظهروا في الأمة في مختلف الأقطار والعصور لحماية الإسلام والحفاظ على صورته النقية- قد كان ببركة دعاء النبي ﷺ.

ثم بعد انقضاء ١٣ قرنًا، ولما ترك أتباع النبي ﷺ العمل بالإسلام من جهة، ومن جهة أخرى شنّت الأمم الغربية هجومًا شرسا على الإسلام لمحو اسمه، أقام الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام، وأسس على يده جماعةً من المسلمين تقدّم النموذج الصحيح للإسلام من جهة، ومن جهة أخرى تضحّي في سبيله بأنفسها وأموالها، فقام بإحياء الإسلام من جديد. في الماضي كان القسس يأتون من وراء المحيطات إلى بلاد المسلمين للهجوم على الإسلام، أما اليوم فقد وصل جنود محمد ﷺ إلى بلادهم للهجوم عليهم في عقر دارهم، حتى بدأ عشاق النبي ﷺ يخرجون من بين تلك الأمم المعادية للإسلام، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي تجتمع فيه جميع شعوب الغرب تحت راية محمد ﷺ، فيكون في الدنيا رسول واحد وشريعة واحدة، ويقوم ملكوت الله على الأرض كما هو قائم في السماء. فالحق أن ما وعد الله به رسوله ﷺ بأنه سيستجيب أدعيته ويرجع إلى أمته بفضله مرة بعد أخرى قد تحقّقَ بكل روعة، وسيظل يتحقق إلى يوم القيامة، لأن الإسلام دين الله إلى يوم القيامة، ووعود الله مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ورد في الروايات أنه لما نزلت سورة النصر وأخبر النبيُّ ﷺ صحابته بنزولها قال: "ليخرجُنَّ منه أفواجا، كما دخلوا فيه أفواجا" (المستدرك للحاكم، والدر المنثور، وكنز العمال، وتفسير فتح القدير).. وقد تحقق ما قال الرسول ﷺ تماما؛ فعندما هجمت المسيحية على الإسلام في العصر الحاضر، خرج الناس من الإسلام أفواجا وتنصروا، وكذلك وقعوا فرائس لحركات أخرى معادية للإسلام، فانحطاط

المسلمين في هذا العصر هو دليل بيّن على صدق النبي ﷺ؛ إذ أخبر بذلك في وقت كان الإسلام يحرز فيه انتصارا بعد انتصار، وما كان لأحد أن يتصور أنه سيصاب بالانحطاط وسيودّعه الناس ويخرجون منه أفواجا، ومع ذلك قد وقع ما قال ﷺ، مما يثبت أن ما قاله النبي ﷺ إنما قاله بناءً على إعلام من علام الغيوب؛ فما دام الجزء الأول من نبوءته ﷺ قد تحقق، فلا بد أن يتحقق جزؤها الآخر أيضا بأن الإسلام سيحيا من جديد وستسطع شمسه في كبد السماء عند بعثة المسيح الموعود، وستدخل الأمم في الإسلام وتصلي وتسلم على محمد ﷺ، وما ذلك على الله بعزيز.

ورد في الروايات أن الله تعالى لما أمر النبي ﷺ في سورة النصر ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، أخذ يُكثِر من الدعاء التالي:"سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك". وتقول أم سلمة: فسألتُه عن سبب ذلك، فقال ﷺ: لقد أمرني الله بذلك، ثم قرأ آيات سورة النصر (الدر المنثور). لقد ثبت من هذا أن النبي ﷺ قد أكثرَ من الدعاء لأمته بناءً على أمر الله هذا، لكي لا تحيد عن الصراط المستقيم، وليتولى الله تعالى تربيتها، وإذا تطرقَ إليها فساد أقام الله تعالى أفرادا منها لإزالته؛ فاستجاب الله دعاءه، وكان نتيجته ما نقرأ في صفحات التاريخ، وسوف يظل الله تعالى في حماية أمته، وكلما كان الإسلام بحاجة إلى حفظه سوف يهيئ الأسباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.